زيارة إلى ساحل البحر الأحمر واليمن(*)

تشارلز. آر. كرين

ترجمة: د. محمد منصور أبا حسين

مراجعة: د. فهد بن عبدالله السماري

كانت هناك أسباب مختلفة للزيارة الجادة التي قمت بها إلى البحر الأحمر خلال فصل الشتاء الماضي، وكنت قد شاهدت من قبل جمال البحر الأحمر خلال رحلتي إلى جدة منذ سنوات قليلة ماضية. فمياهه الزرقاء الغامقة يتحول لونها عند الساحل إلى لون أخضر فاتح، ويقع في خلفيتها جبال وردية اللون يتحول لونها عند غروب الشمس إلى اللون البنفسجي. أما الليالي فلها بريقها الخاص في ذلك الجزء الواقع تحت كوكبه الصليب الجنوبي.

والحياة في هذا الميناء الصغير شبيهة بما كانت عليه منذ آلاف السنين؛ فلم تزعجها السفن التجارية التي تمخر عباب البحر في طريقها من السويس إلى عدن. وتعتمد جدة على موسم الحج شأنها في ذلك شأن الموانئ الصغيرة الأخرى، ومنه تستمد هذه الموانئ ملامحها البسيطة.

لقد استمتعت بطابع الحياة الإسلامية القديمة في القاهرة ودمشق وإسطنبول عندما وصلت لأول مرة إلى ذلك الجزء من العالم منذ خمسين عاما، إلا أن الحياة قد تغيرت الآن؛ إذ فقدت هذه المدن الإسلامية العظيمة طابعها المميز. وحتى مدينة بخارى التي تعد أكثر

(*) ألقى السيد تشارلز. آر. كرين محاضرته هذه في جمعية وسط آسيا الملكية في ١٩٢٧/١١/٢٩م في معهد الخدمات المتحدة الملكية، وكان رئيس الجلسة المارشال الميداني اللينبي. ونشرت في مجلة جمعية وسط آسيا (العدد ١٥) في عام ١٩٢٨م، ص ص ٤٨ - ٦٧.

هذه المدن إبهاجًا قد وصلتها آفة الحداثة. وصار ذلك السوق القديم الجميل تحت الحكم البلشفي ميتا كميدان نفسكي (في مدينة سانت بطرسبرج). وكنت سعيدا حينما وجدت أن جدة لم تتغير حينما زرتها منذ أربع سنوات، بل ظلت على طابعها القديم بمواكب الحجاج المستمرة، وما زالت الجمال والحمير والخيول تستخدم للنقل والمواصلات. وما زالت أسواقها الملتوية مكتظة بالتجار التقليديين، فمنهم الجالس ومنهم المتحرك، ومنهم من يبيع البضائع الضرورية والمصنوعات اليدوية والمقتنيات التذكارية التي يحرص الحجاج على شرائها، وهناك تاجر يقايض الحجاج؛ فيحصل على ما لديهم من مصنوعات يدوية مقابل ما يقدمه لهم من خدمات.

تمثل الجزيرة العربية موطنا طبيعيا للأنبياء، ولهذا فقد سعيت إلى الاقتراب قدر المستطاع من الأحوال الحياتية التي ساعدت ما بين فترة وأخرى على ظهور نبي عظيم. وبالطبع فإن المرء لا يتوقع أن يظهر نبي في البنية المعقدة للمجتمع الحديث.

والأمر الآخر الذي أردت معرفته والاقتراب منه عن كثب هو الحركة الوهابية؛ لأنها تبدو أفضل الأمثلة وأقربها إلى حياة التقشف التي كانت سائدة في زمن محمد ﷺ. ومع أننا نقول في الغرب: "إن التاريخ لا يعيد نفسه"، إلا أن هذه المقولة ليست صحيحة تماما؛ فالحياة الصحراوية تكرر نفسها دائما، والحركة الوهابية تمثل بعثا لعقيدة التوحيد الصحراوية القديمة. فالصلاة هنا هي أهم الشؤون الحياتية، وربما أن ذلك هو المثال الوحيد في أيامنا هذه.

ترتبط، عادة، قصة نشوء الأديان بظهور شخصية عظيمة شبيهة بالنور المركزي، مثل: بوذا والمسيح ومحمد[١]. شخصية تعيش حياتها، وتبشر بعقيدتها، وحينما يختفي ذلك الضوء يقوم مريدوه المقربون

(١) ليست البوذية ديانة سماوية. وربط الباحث هنا هذه الديانة بالديانات السماوية غير مناسب. (المحرر).

منه بتفسير عقيدته، ومع انتقال ذلك الضوء عبر الأجيال من مفسِّر إلى آخر يتضاءل ضوؤه ويشحب إلى أن يتحول إلى نظام مؤسساتي كهنوتي ديني. وكلما حاولوا مواصلة التقاليد الدينية بهت ذلك الضوء.

لقد أدرك محمد هذه الحقيقة، وفهم عملية التدهور التي طالت الأديان القديمة، فما كان منه إلا أن صنع سجله، وقدم تفسيراته الخاصة[٢] حول العلاقة البسيطة بين المسلم وربه، دونما تدخل أو وساطة كهنوتية دينية، أو إقامة طقوس ومعابد مزخرفة تلهي المسلم عن الانصراف إلى العبادة. ومع ذلك فحتى دينه أيضا فقَدَ الكثير من بساطته الأولى؛ حينما ابتعد عن الصحراء، ودخل في منافسة قوية مع الأديان والحضارات القديمة الأخرى في حوض البحر الأبيض المتوسط وفارس والصين.

وبما أن الحياة في نجد لم تتعرض لهذا الاضطراب، واستمرت عبر العصور بعيدة عن الحياة الحديثة المعقدة؛ فإنها تشكل مخزونا عظيما لصفاء العقيدة التي بشَّر بها إبراهيم ومحمد.

أما محمد فلم يكن فقط نبيّا عظيمًا، وإنما كان إداريّا أيضًا

وإن بوذا والمسيح أثناء مسيرة حياتهما الملهمة لم يكونا مسيرة إداريين، ولم يحاولا بأي وجه من الوجوه أن ينظِّما الحياة الدينية ويقنِّناها. أما محمد فلم يكن فقط نبيّا عظيمًا، وإنما كان إداريّا أيضًا، وعاش زمنًا كافيًا؛ لينظم الحياة الاجتماعية السائدة في زمنه، ويقيمها على أسس دينية.

وقد حذا الملك عبدالعزيز حذو النبي ليس في تطبيق الشعائر الدينية وإلزام شعبه بممارستها فقط، وإنما في ربط حياتهم الاجتماعية بالأوضاع الإسلامية الأولى.

(٢) لم يكن ذلك عن فهم مجرد للنبي ﷺ، بل كان من وحي أوحى به الله تعالى إليه (المحرر).

لا شك أن النار التي توقد حركة كالحركة الوهابية قد تتجاوز الحدود المعقولة، فالأخوان المتشددون في فورة عاطفتهم لطمس كل ما يتوسط بين المسلم وربه قد هدموا أشياء عدة تحمل ذكريات أثيرة لدى الحجاج، وتمنحهم الراحة النفسية والسعادة الروحية(٣).

إنه ليس من الغريب في التاريخ الآسيوي أنه بعد استسلام مدينة محاصرة لقائد ما أن تخفِّف من تمسكها بأسلوب حياتها، وتفسح للجيش المنتصر قسطًا من المساحة للتحكم في سكانها وممتلكاتها.

وعلى أية حال، فلا أعتقد أن جيشا فاتحا من قبل كان لديه فكرة متميزة في ما يتعلق بطريقة التعبير عن شعوره كما فعل الوهابيون حينما ضموا مكة. فمع أنهم قد قتلوا عددا قليلا، وأخذوا بعض الممتلكات، إلا أنهم عبّروا بطريقة مقنعة عن كراهيتهم العظيمة للنصب التذكارية والأضرحة حتى وإن كانت مخصصة لأبرز رجال دينهم ونسائه.

وشعر الحجاج - الذين حضروا للحج - بعد هذا التدمير بالذعر والحزن، وتحدثوا إلى الملك عبدالعزيز حيال قبوله لهذا الدمار. وعبر عن شعورهم الإخوان الذي وفدوا من الهند خلال انعقاد المؤتمر الإسلامي الذي دعا إليه الملك عبدالعزيز؛ ليعلن توليه أمور الحجاز.

وقام الملك عبدالعزيز بالدفاع بشكل واضح عن العقيدة الوهابية(٤). فقد قال: "لا يهمنا سوى القرآن والسنة النبوية كما فسرها البخاري وابن تيمية. فإذا كنا قد فعلنا ما يتعارض مع أي منهما فإننا سوف نتوب ونصلح أمورنا؛ وإذا كان الأمر خلاف ذلك فإن التهديد لا يخيفنا؛ لأننا نؤمن بالله وبالصلاة فقط. فالإنسان

(٣) ما قام به الإخوان أو غيرهم من إزالة بعض الأماكن كان نتيجة لوجود مخالفات شرعية واضحة. (المحرر).

(٤) الوهابية ليست عقيدة أو مذهب كما قد يظن بعض الكُتَّاب، وإنما هي دعوة للعودة إلى الدين الصحيح كما ورد في الكتاب والسنة. (المحرر).

الذي يصوم شهر رمضان في كل سنة ليس مسلما إذا لم يؤدِّ الصلاة، والإنسان الذي يحج إلى مكة، ويؤدي جميع شعائر الحج؛ لكي يصبح حاجا فإنه ليس مسلما إذا لم يؤدِّ الصلاة، والإنسان الذي يوزع جميع ثرواته على الفقراء ليس مسلما إذا لم يؤدِّ الصلاة ".

يحرص الوهابيون دائما على عدم تقديس النبي محمد ﷺ، ويتجنبون القول: "قال الله ومحمد"، بل يقولون: "قال الله، وقال محمد".

ومع أن الملك عبدالعزيز قد استقبل بكل حفاوة وتكريم الشيخ أحمد السنوسي المنفي، والكبير في السن، والنادر المثال - حينما ظهر في الجزيرة العربية - وعامله بكل احترام، ومع أن فرقته تلتقي مع الفرقة الوهابية في الكثير من الأمور المهمة، إلا أن الفرقة السنوسية لا تتفق مع الوهابيين حول الأمور المتعلقة بالأماكن المقدسة، فقد طرح الإخوان الشيخ أحمد أرضًا؛ حينما وجدوه يصلي بجوار منزل محمد ﷺ.

لقد سبق أن قابلت سيدي أحمد في بورصة، وأجريت معه مقابلة ثمينة في سنة ١٩١٩م، وأمّلت أن أقابله في هذه الرحلة، ولكن الحظ لم يحالفني؛ فحينما كنت هناك كان في أعماق عسير، ولم أستطع الوصول إليه. وأخيرا وجدت في القاهرة اثنين من أبنائه اللذين غادرا صحراء ليبيا على أمل العثور على والدهما، الذي مضى على رؤيتهما له ستة عشر عاما.

كما أن الحظ لم يحالفني مرة أخرى، فلم أقابل الملك عبدالعزيز؛ لأنه كان في طريقه إلى نجد التي كان بعيدا عنها لمدة ثلاث سنوات، استطاع خلالها الإخوان أن يتمردوا على سلطته.

وعلى أية حال فقد تلقيت برقية ترحيب منه ومن ابنه الأمير فيصل؛ إذ حضر من مكة حاملا رسالة من والده تتعهد بعمل كل ما

يمكن لإنجاح رحلتي، وقد قال لي: إذا أردت أن ترى أي شخص من مكة فسوف نبعثه إليك في جدة. وبقي فيصل في جدة أيامًا عدة، أجريت خلالها معه عددا من المقابلات والأحاديث الودية. لقد وجدت في ينبع وجدة كثيرا من الموظفين الذين كانوا يعملون في عهد الشريف حسين. وتبين لي أن البيروقراطية هنا ـ شأنها في بقية أنحاء العالم مع ضآلتها ـ استمرت على الرغم من تغير الحكومة، ولم يتغير سوى عدد قليل من المسؤولين الكبار لمسايرة الاحتفال بالإدارة الجديدة.

لقد كنت مرتاحا في جدة حيث أقمت في بيت محمد نصيف مركز الحياة الإسلامية هناك. ومحمد شخص نبيل يحتوي منزله على أهم مكتبة في الحجاز، وبيته ملتقى عام لأعيان جدة، وللمسافرين إلى مكة، والقادمين منها. وقد تمكنت هناك من إجراء عدد من المقابلات مع كثير من المسلمين المحافظين الفضلاء.

في الحجاز جنسيات بشرية عدة قادمة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، بعضهم لم يستطع المغادرة، وبعضهم الآخر يعمل بالتجارة، إلا أنه من الشائق التعرف على أولئك الذين يجدون طمأنينة في قضاء بقية حياتهم في الأراضي المقدسة. وقد كانت هذه الفئة الثالثة أفضل جائزة حظيت بزيارتها. وأذكر بشكل خاص طبيبًا هنديا عجوزا وصل مؤخرا؛ ليقضي أواخر أيام حياته في المدينة المنورة.

وغالبا ما كنت أستمع في المساء إلى نوع من ترتيل القرآن، فقد كان في المنزل شيخان ضريران نادران كأنهما من أهل البيت يرتلان القرآن، وكانا يرتلان على مسمعي جزءًا كل ليلة. لقد كان ذلك هو النوع الوحيد من الإنشاد المسوح به وهابيًّا؛ فالوهابيون ضد الموسيقى الآلية، وقد منعوا الحجاج المصريين القادمين بصحبة كسوة الكعبة من اصطحاب الموسيقى التي كانت دائما جزءًا من هذه القافلة القديمة إلاَّ أنهم كانوا أكثر تعاطفا معي؛ فسمحوا لي بدعوة بعض

البدو الذين تصادف وجودهم في جدة إلى الحضور إلى المنزل؛ ليسمعوني بعض الأغاني الصحراوية القديمة. كما كان هناك أيضا حادي قافلة أسمعني بعض الأغاني الجميلة التي تغنيها القوافل في رحلتها الصحراوية.

وأمضيت الكريسمس ورأس السنة في جدة في ضيافة الجالية الأوروبية الصغيرة، ومعظمهم هولنديون وبريطانيون، وقد أفسحوا لي المجال للمشاركة في محاولاتهم الناجحة؛ لإضافة نغمة فرح في تلك الأيام الخوالي حيث كنت بعيدًا عن وطني.

وذات يوم اصطحبني مضيفي محمد نصيف إلى منزله الريفي الذي يبعد قرابة ثلاثة أميال من جدة، وقد نظّم ابنه مباراة حماسية في كرة القدم، وكان أمرا ممتعا مشاهدة العرب يلاحقون الكرة بثيابهم، ويركلونها بأقدامهم العارية. ولا شك أن انتشار لعبة كرة القدم ظاهرة اجتماعية شائقة في زماننا هذا.

يعمل في الحجاز أجناس مختلفة من البشر القادمون من أرجاء العالم الإسلامي، أما المواطنون وخاصة الأشراف فإنهم يكسبون عيشهم من الإشراف على الأماكن المقدسة، ومن الطوافة، وما يلحقها من طقوس دينية، وبالطبع فقد خسروا الكثير من جراء هدم الكثير من الأماكن المقدسة، وبسبب موقف الوهابيين من الأضرحة وحياة الترف مهما كان نوعها(٥).

يواجه الملك عبدالعزيز وضعًا صعبًا، فهو من جهة يحاول إرضاء النزعة الدينية المتشددة لبعض أتباعه في نجد الذين لا يقبلون المصالحة أو التنازلات التي اضطر إلى اتخاذها لإرضاء الحجاج القادمين من جميع أرجاء العالم. ومن جهة أخرى يهمه إرضاء الحجاج الذين يمثلون دخلاً اقتصاديًا مهمًا للبلاد. وحيث إن معظم

(٥) ليس الأمر على إطلاقه، فلا مانع من حياة الترف ما لم تخالف الشرع الإسلامي (المحرر).

الرخاء الذين تعيشه نجد يأتي من رعاية الحجاج بمختلف طوائفهم الذين تعبر قوافلهم الأراضي النجدية، وإذ إن كل الرخاء الذي يعيشه الحجاز يأتي من الحجاج الذين لا يأتون للحج فحسب، وإنما للتسامي بأرواحهم من خلال زيارة البيوت والأضرحة التذكارية، وكل ما يتعلق بالمواقع ذات الصلة بنبيهم محمد ﷺ، ولذا فإن الملك عبدالعزيز يواجه مشكلات سياسية ودينية واقتصادية تتطلب درجة عالية من الفن في إدارة شؤون الدولة.

وقد استطاع من خلال تطبيق الشريعة الإسلامية الصارمة، ودقته في اختيار القضاة، وإشرافه على أعمالهم القضائية أن يقضي - تقريبا - على الجرائم، فالحجاج والتجار في أرجاء أراضيه أكثر أمنًا مما كانوا عليه لقرون عدة.

فقد وضع قوانين تمكن الحجاج من الحصول على الخدمات المختلفة بأسعار منخفضة؛ مما أدى إلى حمايتهم على نحو لم يسبق له نظير. ويشعر الحجاج الذين حلموا لسنوات عدة، وحملوا في أذهانهم صورًا لما سوف يعملونه في الأماكن التي سوف يزورونها بخيبة الأمل والإحباط الروحي. فظاهرة الطواف بالحجاج على الأماكن المقدسة ليس من اختراع السيد توماس كوك، بل إنها في الواقع أقدم مهنة منظمة في العالم. بل إن بعض مواكب الحجاج كبيرة جدا لدرجة أنها تتطلب إشراف الحكومات المعنية. ولعل أقدم موقع يقصده الحجاج هو المعبد الواقع على جبل تاي شأن المقدس العظيم في وسط العين. كما أن للحجاج البوذيين واللاميين قوافلهم الكبيرة جدا. وعلى أية حال، فإن قوافل الحج الهندية هي الأكبر، إذ تبلغ مليون نسمة يتحركون نحو النقطة التي تتقاطع فيها مياه نهر الجنكيز ونهر جمنا، والجدول المقدس المتخيل الذي يفترض أنه يصب في النقطة نفسها. ولعل أروع منظر فاتن وملهم هو منظر الأجسام المتحركة للحجاج الروس قبل الحرب وقبل الثورة البلشفية، وهم

يغنون ويصلون في طريقهم إلى المعابد في روسيا نفسها، أو حجهم الكبير إلى فلسطين وجبل آثوس.

وعلى أية حال، فإن البلاشفة يحتقرون هذه الأنواع من المواكب الدينية وخاصة مواكب الحج. ومع اختفاء أولئك الحجاج السعداء خسر الشرق الأوسط كثيرا من ألوانه. لقد رأيت بعضا من مواكب الحج، ولكنني لم أكن أحلم برؤية مواكب الحجاج المسلمين؛ لأنني كنت في جدة قبل موسم الحج بزمن طويل. وعلى أية حال فإن منظر الحجاج الجاويين يشبه منظر الحجاج الروس القادمين إلى القدس. فهم يخططون لهذه الرحلة منذ سنوات بصفتها تجربة حياتية نادرة، يأتون بصحبة عائلاتهم، وعلى استعداد للبقاء مدة طويلة، ويستمتعون بعطلة رائعة، يتحركون بمتعة، ويزورون كل الأماكن المقدسة، ويستمعون باهتمام لكل القصص المتعلقة بهذه المواقع.

وصلت الأنباء من عدن بوصول عشرة آلاف حاج من جاوه في طريقهم إلى جدة، وكان من الممتع رؤية جدة وقد استيقظت بسرعة بعد سماع الأنباء. ومع أن جدة مملوءة بالبهجة والنشاط إلا أنه ابتهاج منظم يكشف عن إدارة ممتازة، فقد نُظِّفت الغرف، ورُتِّبت الدكاكين، واستعدت للبيع والشراء؛ لأن الحج مناسبة مهمة للتجارة. وشرع التجار في ترتيب حساباتهم، وأخرجت الصناديق من المستودعات، وأقيمت على جوانب الشوارع؛ لكي يسكنها الحجاج الفقراء حال وصولهم. وكان الميدان الصغير أمام منزلي مركز هذه الأنشطة.

وقبل وصول الحجاج بيوم واحد تقريبا بدأت الجمال بالظهور، وكانت حفلة استقبال الحجاج الجاويين جميلة جدّا، فلقد كانوا أول القادمين من الحجاج، وأكثر الحجاج شعبية في هذا الموسم، واستقبلوا بكل حفاوة واحترام. وكان على البواخر أن ترسو بعيدًا عن الميناء خلف الصخور المرجانية، ونقلتهم القوارب الشراعية إلى

الساحل. وكان رائعًا رؤية منظر القوارب الشراعية، ومشاهدة الحجاج الجاويين بذوقهم الرفيع، وحسّهم الفني ومنظر نسائهم وأطفالهم بملابسهم الجذابة وبضائعهم البراقة.

واستغرق الترتيب للرحلة إلى مكة عددًا من الليالي والأيام، وأمضى معظم الحجاج أوقاتهم نائمين فى الصنادق أو في الأسرة الخفيفة ينتظرون ساعة الرحيل التي عادة ما تكون في منتصف الليل. وكان الباعة يتجولون بين الحجاج بصوانيهم المضاءة بالشموع، والمملوءة بالبضائع الجذابة طوال الليل، وقد رافقت مجموعة من هؤلاء الحجاج كما لو كنت حاجًا إلى أن وصلوا محطة بحرة الواقعة بين جدة ومكة. وهناك استطعت دراسة العمليات البدائية، والأعمال المتعلقة بقوافل الحجاج في أية محطة من محطات الحجاج في الجزيرة العربية.

لقد كان هناك بالطبع بئر ومسجد، وحظائر للجمال، ومشروبات خفيفة، وأمكنة للاستراحة. وفى طريقنا أخبرونا بأول قصة يسمعها الحجاج حين دخولهم الأراضي المقدسة، وهي قصة "كنفاني وزلاهاني" التي يرويها المطّوف أمام رابيتين تشيران إلى مكان موت هذين الرجلين. ويخبر المطوف الحجاج بأن هذين الرجلين توفيا في الطريق، وكان أحدهما قادمًا من مكة، والآخر قادما من جدة. قال أحدهما للآخر: إنني ذاهب إلى مكة؛ لأبني مخبزًا وأبيع الخبز على الحجاج، ولكنه لم يقل: "إن شاء الله"، ومات وهو في الطريق، وقال الآخر مفاخرًا: إنني ذاهب إلى جدة؛ لإعداد وليمة عظيمة لشخص مهم، ولكنه أيضا تجاهل أن يقول: "إن شاء الله"، ومات وهو في الطريق، وهاتان الرابيتان اللتان تذكراننا بهذين الرجلين هما كومتان من الصخور، وعلى كل حاج أن يقذف حجرًا على الكومة؛ للتعبير عن احتقاره لفعل هذين الرجلين قليلي التقوى!

كان اليمن هو الجزء الآخر من الجزيرة العربية الذي أردت زيارته للتعرف على الإمام يحيى الذي يحظى بمكانة عالية في العالم الإسلامي، والذي يمثل بلده - منذ قرون عدة ومع مر الزمن - موقعًا مهمًا بين الشرق والغرب، وكان أول موطن للحضارة العربية.

لقد كانت المشاكل السياسية للدولة السبئية القديمة مشاكل نقل ومواصلات وحماية لحركة التجارة؛ فقد أقامت اليمن التي عرفت منذ فجر التاريخ في الألفية الثالثة قبل الميلاد باسم "ميلوخا" و"ماجان" علاقات تجارية مستمرة مع بابل. ولم يسمح للتجار الشرقيين سواء من الساحل الجنوبي الأفريقي، أو من الهند والصين لتجارتهم بعبور مضيق باب المندب، وإنما إنزال البضائع في ميناء عدن، ثم نقل معظم هذه البضائع بالقوافل عبر أحد الطرق الثلاثة المتجهة شمالا: فالطريق الأول يحاذي الساحل، والطريق الثاني يقع شرقًا على حافة الصحراء وهو أيضا طريق ممهّد وصالح لمرور الجمال، أما الثالث فطريق وعر المسالك، ويمر بوسط اليمن، إلا أنه أكثر أمنًا من الطريقين السابقين. ويتفرع أحد هذه الطرق عند صعدة متجها نحو الشمال الشرقي، ومارا بنجد في اتجاهه إلى الخليج العربي. وقد قرر الفينيقيون الذين ولدوا بحّارة، وطوّروا فن الملاحة في البحر الأبيض المتوسط ارتياد البحر الأحمر. وكان الإبحار صعبًا وخطرًا بسبب سلسلة الصخور الكثيرة. وأثناء تعرفهم على البحر كانت سفنهم تبحر نهارًا من ميناء إلى آخر. ومع مرور الزمن نجحوا في بناء تجارة تعتمد على نقل البضائع الثقيلة بين عدن والعقبة. وبالطبع فإن هاتين الوسيلتين القديمتين للنقل لم يستغن عنهما نسبيا إلا في الوقت الحالي؛ إذ يمكن الإنسان الآن أن يشاهد قاربًا شراعيا في البحر الأحمر، ويرى قافلة مسافرة على الطرق التجارية القديمة.

وأود أن ألقي نظرة فاحصة على هاتين الوسيلتين؛ فقد كان بناء القوارب والإبحار بها موضع اهتمامي طيلة حياتي، وحيثما أذهب في هذا العالم فإنها أول ما أقوم بدراسته.

ففي الصين اخترعت القوارب ذات الأشرعة المربعة منذ العصور القديمة للمساعدة في المواصلات النهرية، وهذه الأشرعة عالية جدا لتصل إلى الرياح التي تهب فوق ضفاف الأنهار. وقد تطور هذا النوع من القوارب الشبيهة بالبط إلى قوارب يمكنها الإبحار في أعماق البحر؛ إذ زودت بما يحجب جانبها من الرياح، ويمنعها من الانحراف عن مسارها، والشراع المربع يواجه الرياح، مما يساعد على الإبحار بسرعة فوق المياه الواقعة فوق سلسلة الصخور البحرية. وهذه القوارب مزودة بمرساة بحرية حديدية تمسك مؤخرة القارب، وليس مقدمته، وتجعله مستقرًا في الأحوال الجوية السيئة. وهذه القوارب والسفن هما الوسيلتان اللتان أحضرتا البضائع من الشرق إلى عدن.

أما السفن الفينيقية فهي نوع مختلف تمامًا، وربما أنها تطورت من القوارب الموجودة في نهر النيل ذات الأشرعة التي يمكن نشرها وطيها، والتي يمكن أن تكون أصل القوارب ذات الشراعين المستخدمة في أعماق البحار بسبب هيكلها الذي يشبه هيكل السمكة. ثم قام العرب بتطوير فن صناعة السفن، وأتقنوا فن الملاحة، وكان ذلك سببا في انتشار الإسلام في الشرق الأقصى. وقد استخدمت شخصيًا القوارب العربية مرات عدة في رحلتيّ الماضيتين، وأثناء هيجان البحر الذي يحدث كل يوم بالقرب من جدة. وهي قوارب قوية وجافة، وأشرعتها مواجهة للرياح، وتبحر بشكل جميل. ويبدو أنها قد بلغت مرحلة الإتقان منذ زمن بعيد، وكان العرب سادة في فن هاتين الوسيلتين.

لقد نظم رحلتي إلى اليمن القنصل الأمريكي في عدن السيد (ج. لودر بارك)، الذي يكنّ له الإمام احترامًا كبيرًا، ودخلت اليمن عن

طريق ميناء الحديدة. وفي اليمن تقوم النساء عادة بإدارة المقاهي، وفي الماضي البعيد كان هناك مقهى تديره امرأة اسمها حديدة، ونشأ حول هذا المقهى مجتمع صغير تطور حتى صار ميناء، ثم أطلق اسم هذه المرأة على هذا الميناء، وقد استقبلني المسؤولون اليمنيون، وأقاموا لي حفلتي استقبال طريفتين في البحر والبر.

ففي الساحل اصطف الجنود، وعزفت الفرقة موسيقى تركية؛ لأن جيش الإمام يتكون من الأتراك، وربما أن لباس الجنود هو اللباس نفسه الذي ارتداه الجنود منذ ألفي سنة، إلا أنهم الآن يحملون البنادق بدلا من الرماح. وسمعت هناك لأول مرة النشيد الوطني المؤذي للأذن الذي أنشده جنود يتمتعون بروح عالية، وعلمت أن هذا النشيد له أصول قديمة، ولكن الكلمات تتغير من وقت لآخر، والآن تمجِّد كلمات النشيد الإمام وعائلته. إن الانطباع الذي يخرج به المرء من هذا المشهد، ومن الملابس التي يرتدونها، ومن البناء المعماري هو أن اليمنيين لا يملكون الذوق الفني الذي يملكه الحجازيون!

ومع أن الحديدة تقع بعيدا في أقصى الجنوب؛ فإن هناك هواءً منعشًا يهبّ في معظم الوقت، ولا يشعر الإنسان بوطأة الطقس التي يشعر بها في جدة. وتشتهر الحديدة ببناء القوارب؛ فقد رأيت مكانًا يحتوى على عدد من القوارب التي يجري صنعها. والطريقة التي يبنون بها القوارب بسيطة ومباشرة؛ إذ يقوم المهندس المتخصص ببناء القوارب بتوقيع العقد وجمع المواد، ثم يقوم العمال ببناء القارب على الأرض. ولو طلب المهندس من العمال مثلا بناء قارب يزن مئة طن فإن العمل سيبدأ في الحال دونما خطة أو أنموذج يحتذى؛ فكل عامل يعرف ما يجب عليه القيام به. وفي الوقت نفسه يقوم المهندس البارع في النجارة بإنجاز أعمال صغيرة أخرى في الحديدة، ثم يعود أحيانا إلى المكان الذي يصنع فيه القارب لمعرفة ما يحتاجون إليه. والنتيجة عمل جيد وقوي، فالألواح قد سُمِّرت في هيكل القارب

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز العدد الرابع شوال ١٤٢٤هـ، السنة التاسعة والعشرون
الدارة

بمسامير حديدية كبيرة يتم طرقها، ثم ثنيها عند خروجها من الجانب الآخر، وتصنع المسامير في المكان نفسه، وكذلك الحبال التي تستخدم لرفع الأشرعة وطيّها. ولقد دهشت حينما عرفت أن الأشرعة هنا وفي القوارب الأخرى في البحر الأحمر مستوردة من ولاية مين في الولايات المتحدة الأمريكية.

وبينما كنت أتجول في شوارع الحديدة ذات يوم سمعت أصواتًا غريبة مصحوبة بقرع الطبول، وحينما تعقبت الصوت وجدت مجموعة من الناس تمرّ بالسوق، وفي وسط المجموعة رجل يحمل طبلاً على ظهره، وخلفه مسؤول يقرع الطبل بكل قوة، فترتفع أصوات الناس والباعة بالسخرية من حامل الطبل. لقد كان ذلك ضرب من العقاب، فقد قُبض على الرجل سكران. ولكننا في أمريكا حيث إننا حديثو عهد بمنعِ الكحول لا نلجأ لمثل هذا النوع المتطرف من العقاب!

لقد حاول محافظ الحديدة عندما زرته لأول مرة زيارة رسمية أن يوضح لي موقف الإمام من الشؤون الداخلية والخارجية، وأخبرني أنه على الرغم من حرص الإمام على عمل كل ما من شأنه تحقيق الرخاء لبلده الصغير، فإن الناس لا تثق بالأجانب؛ لأنهم يرفضون أي نوع من الاحتلال. وهذه نغمة سائدة في الشرق الأوسط تعبر عن كراهيتهم للاحتلال الأجنبي.

هذه نغمة سائدة في الشرق الأوسط تعبر عن كراهيتهم للاحتلال الأجنبي

وحديثًا أجريت بعض التجارب لزراعة القهوة والتبغ، واستوردت بعض الآلات لحلج القطن، وبدأ العمل في بعض المدارس الابتدائية، ولكنها مدارس ذات أغراض عسكرية.

ولوجود جبال عالية بين الحديدة وصنعاء؛ فقد تقرر عليّ استخدام البغال؛ نظرا لصعوبة الطرق، ووعرة مسالكها التي تستعصي على الخيول والجمال. وحينما تحدثت مع الإمام عن

خطورة الطرق وصعوبتها أجابني بأن ذلك جزء من دفاع البلد الطبيعي ضد الغزاة.

وبعد يوم أو يومين بدأنا بالتعرف على الطراز المعماري الغريب والجذاب في اليمن، فهو يختلف تماما عن الطراز المعماري في الحجاز، ومررنا بأودية رائعة تتم فيها الزراعة على نمط المصاطب، ويزرع فيها القهوة، وبلغت فيها الزراعة درجة عالية من الإتقان.

وفي حين يعكس الطراز المعماري في جدة ومكة والمدينة النبوية حسن الضيافة والحياة المستقرة؛ إذ إن الأبواب والنوافذ كبيرة يسهل فتحها والوصول إليها، فإن الطراز المعماري في اليمن يعكس عدم الثقة الواضحة؛ إذ إن المنازل والقرى تقع في الأمكنة العالية التي يصعب الوصول إليها. فالطابقان الأول والثاني ليس لهما أبواب تقريبًا، فالطابق الأول مخصّص للحيوانات، والثاني يستخدم لتخزين المؤن، وحتى الطوابق العالية حيث تسكن العائلة يمكن ملاحظة صغر نوافذها التي لا تكاد تسمح للضوء أو الهواء بالدخول، وتشبه المنازل قلاعًا بُنيت للدفاع، وليس للسكن والراحة!

بالطبع فإن التضاريس الجغرافية لليمن والحجاز على طرفي نقيض؛ فالحجاز أرض منبسطة، في حين يتكوّن اليمن من الجبال والأودية. كما أن الحياة الاجتماعية في البلدين أيضا على طرفي نقيض؛ فالحجاز بلد مفتوح للملايين من المسلمين القادمين لزيارة المدينتين المقدستين، ويعتمد عليهم الحجازيون في معيشتهم مقابل ما يقدِّمونه لهم من خدمات تشعر الحجاج بالراحة والسعادة. أما اليمن فمغلق تمامًا، وليس هناك بلد في العالم يشبهه في قلة الزائرين. ولعل ذلك بسبب التجارب المريرة التي تعرّض فيها اليمن للخيانة والعدوان؛ ولذا فنظام بناء المدن والقرى، والمنازل وكل ما يتعلق بنمط الحياة في اليمن إنما هو رد فعل لمواجهة أطماع جيرانهم.

ومع أن الإمام قد هيّأ لي سبل السفر المريح، ومع أن وقت وصولي غالبًا ما يكون في نهاية النهار، إلا أنني قد اضطررت مرة إلى قضاء ليلة في نزل قديم جدًا شبيه بتلك النزل الموجودة على طريق القوافل ما بين عدن وصنعاء. وهي غرف لها باب، وليس لها نوافذ، تقضي فيها الأسرة أو المجموعة من المسافرين ليلتهم، ويقتسمونها مع بغالهم وحميرهم. ولاشك أن كثيرًا من الأطفال قد وُلِدوا في هذه الغرف، ويمكن للمرء أن يتصور المكان، فهو شبيه بـ"المعلف" الذي ربما وُلِد فيه المسيح.

لقد كانت المناظر رائعة ما بين الحديدة وصنعاء، وقد صعدت جبالاً كثيرة يبلغ طولها ٩٠٠٠ قدم، وهبطت أودية عميقة حارة، ووصلت صنعاء بعد هبوط الظلام، ولم يكن أحد يتوقع وصولي في تلك الساعة، وبما أن الشوارع خالية من الإضاءة؛ فقد واجهنا صعوبة بالغة في طريقنا. وعلى أية حال، فقد استطاع الجنود بمساعدة مصباح الغاز الاهتداء إلى المنزل المخصّص لإقامتنا. وكان منزلا مريحًا بطابقين، وحديقة ملاصقة تبلغ مساحتها هكتارًا واحدًا، ومزرعة للخضار، وصالة للأغراض الاحتفالية.

وقد تم شراء هذا المنزل منذ أشهر قليلة بمبلغ مئة وخمسين دولارًا؛ ولذا فإنه من الواضح أن غلاء المعيشة وهي إحدى الظواهر الغربية لم تصل إلى اليمن. فقد أخبرنا الجنود الذين رافقونا في الرحلة أن الراتب الشهري للجندي يبلغ دولارين ونصف الدولار إضافة إلى أوقيتين من الخبز يوميا. ولا يأكلون تقريبا سوى الخبز، مع أنهم عادة ما يشتركون مرة في الأسبوع في شراء بعض لحم الغنم. ومن المدهش رؤية الحالة المتقشفة التي يعيشها هؤلاء الرجال. ويبدو أن تحمّلهم ليس له نهاية، فهم يمشون ويركضون طوال اليوم بروح عالية، ويحمل الواحد منهم بندقية، ويتمنطق بحزام عامر بالرصاص.

وفي اليوم التالي دعانا محمد راغب أحد مساعدي الإمام، وهو تركيّ من إسطنبول نشأ على مضيق البسفور بالقرب من المدارس الأمريكية التي ارتبط معها بعلاقات جيدة منذ زمن طويل ومألوفة لديه؛ إذ إن أحد أفراد أسرته قد التحق بها. وكان هذا من حسن حظي، فقد تعاطف الإمام معي؛ لأن هذا (السكرتير) استطاع أن يترجم - بشكل منطقي - الأمور التي تحدثنا عنها.

وفي اليوم التالي استقبلنا الإمام بمفردنا بكل ترحيب، وقال لي: إن بإمكاني أن أذهب بحرية إلى أي مكان أريد الذهاب إليه، وأن ألتقط صورا لكل شيء أو أي شخص، ولكنه لم يسمح لي بالتقاط صورة له؛ لأنه الخليفة. كما أنه سوف يبعث إليّ بأي شخص يمكنه مساعدتي حول أي موضوع أقوم بدراسته.

ويبلغ الإمام من العمر خمسين عامًا، ويتمتع بصحة جيدة، وحيث إن بلده صغيرة؛ فإنه لا يكتفي بإدارتها، وإنما قرر إبقاء جميع الأمور الإدارية، وكل التفاصيل الدقيقة في قبضته. ويجلس في كل صباح في مجلس يمكن لكل من شاء أن يذهب إليه، ويقدم أسئلته ومطالبه وشكواه.

وإضافة إلى ذلك يخرج لمدة ساعة يوميًا إلى الأماكن العامة دونما حرس أو جنود ما عدا شخص يحمل مظلة تحميه من حرارة الشمس؛ فيستمع إلى شكاوى الناس، وينظر في طلباتهم التي يعرضونها عليه. وهو سلطان وخليفة في الوقت ذاته، ويستمد سمعته من انتسابه للخليفة علي بن أبي طالب. ويعد ذهابه إلى المسجد في يوم الجمعة مناسبة درامية أسبوعية، وعند خروجه من الصلاة يتوقف الإمام عند أية إشارة من المواطنين؛ ليستلم طلباتهم أو أي شيء يريدون تقديمه له.

وللإمام جيش يتكون من الجنود الرسميين والمتطوعين، وغالبا ما يجهرون بالنشيد القومي، وهو نشيد مزعج يخترق الأذن بأنغامه

الحادة، ويحتوي على أبيات شعرية ينشدونها بهمة عالية، ويقال: إن الإيقاع قديم جدًا.

ومع أن الإمام كان لطيفًا معي عندما زرته، وتحدثنا بكل صراحة، فإنه لم يعرني اهتمامًا أمام الناس؛ إذ إنه من الضروري له أن يبدو مستقلا جدا، وأن يظهر ازدراءه للأجانب مراعاة لشعور القبائل المتزمتة التي تحارب على حدوده بلاده الشرقية. فقبضته على أمور الدولة - شأنه في ذلك شأن الملك عبدالعزيز - تعتمد على الجانب الديني.

ويتظاهر أن لديه حكومة ائتلافية على الرغم من أنه زيدي تقوم مملكته على مبدأ المذهب الشيعي الزيدي، إلا أن ثلث شعبه الساكنين على جانب البحر الأحمر هم من السنة، ويشغلون عددًا قليلا من الوظائف الحكومية الثانوية.

والشعب فقير جدا، ولكنهم بسبب عزلتهم عن العالم الخارجي لا يدركون مدى فقرهم، ويجد الإنسان صعوبة في فهم كيف يمكن فرض ضريبة عالية على هؤلاء الناس للمحافظة على حكومة مركزية بجيش كبير إلى حد ما. إن ذلك عائد بالطبع إلى عبقرية الإمام. ويبدو أن الحكومة تحصل على دخلها من فرض ضريبة مقدارها ١٠٪ على كل شيء، إلا أن الناس قد أخبرونا أن جامعي الضرائب يرفعونها إلى ٢٥٪؛ مما يثير امتعاض الناس وسخطهم.

هناك في صنعاء عدد قليل من المباني التي لا تتجاوز ستة أدوار، والطراز المعماري قبيح، ولم أر إلا القليل الذي يشير إلى ذوق رفيع سواء في الطراز المعماري أو المواد أو الملابس أو الموسيقى. إلا أن المساجد هي الاستثناء الوحيد؛ فهناك مساجد جميلة على الرغم من بساطة تصميمها، ويظهر التضاد واضحا حين مقارنتها بالطراز المعماري المحلي، وبعض هذه المساجد قديم جدا، وقد ظننت للوهلة

الأولى أن المهندسين المعماريين الذين صمموها وبنوها قد قدموا من إسطنبول؛ إلا أنني عرفت في ما بعد بأن المهندسين المعماريين والبنائين جميعهم يمنيون.

وحينما استقر بي المقام جاءت جماعات مختلفة لزيارتي، وكنت أستشيرهم كلما أردت دراسة أي جانب من جوانب الحياة اليمنية، فيتم إحضار أي إنسان له إلمام أو معرفة بالموضوع لرؤيتي؛ فقابلت أهم المعماريين، وأهم التجار، ورجال الجيش وخاصة المتعلمين منهم كالقاضي العام الذي كان على قدر كبير من الوقار، ونشأت بيننا علاقة طيبة، وجاء لزيارتي مرات عدة. وللقب "قاضي" في اليمن دلالة خاصة، ويطلق عادة على المتميزين في أي مجال من مجالات المعرفة، وهو شبيه بلقب "شيخ" المستخدم في البلاد الواقعة شمال اليمن.

لقد كنت مشتاقًا للقيام برحلة حج إلى سبأ القديمة، وخاصة رؤية سدها القديم والذي كان أساس رخائها. وشعر الإمام بالأسف؛ لأنه رفض تحقيق رغبتي، مبينا أن رحلة كهذه في عداد المستحيل - على الرغم من أن المسافة لا تزيد على خمسة وسبعين ميلا إلى الشرق من صنعاء - وأخبرني أنه حتى لو أراد الذهاب إلى هناك فإن عليه الاحتياط والحذر؛ لأن القبائل هناك متزمتة، وتعد نفسها مسؤولة عن حماية كنز عظيم ومقدس من الآثار الباقية للعاصمة القديمة، ولن يسمحوا لأي أجنبي بالاقتراب منها، وأخبرني أنه قبل الحرب العالمية الأولى حضرت بعثة ألمانية للبحث عن الآثار في هذه المنطقة فما كان من البدو المحليين إلا أن قتلوهم جميعًا.

وعلمت بعد أن أمضيت في صنعاء أيامًا عدة أن ولي العهد سيصل في اليوم التالي، فقد كان بعيدًا لمدة ثلاث سنوات مع الجنود في الشمال في ولاية صعدة، يتفرع منها طريقان أحدهما إلى مكة والآخر إلى نجد، وبالطبع فإن عودته ستكون مناسبة مهمة.

وقد أخذوني إلى خارج المدينة على بعد خمسة أميال حيث اصطف الناس والجنود للترحيب به، وكانت مناسبة ممتعة، وكان هناك حماس واضح يؤكد شعبية الأمير. لقد وصل الإمام الحالي إلى السلطة خلال عملية انتخاب في اجتماع حضره شيوخ البلد الكبار والتي يسيطر عليها بكل سهولة. ومن الواضح أن ابنه إذا بقي حيا؛ فسوف يسيطر على الاجتماع عندما يحين توليه السلطة. وبعد أيام من عودة الأمير ذهبت لزيارته، ويبدو أنه شاب جاد، وذو شخصية جذابة، إضافة إلى أنه كان أكثر لطفًا من والده الصارم.

من ضمن الممارسات الحكومية الغريبة في صنعاء تخصيصها جزءًا من المدينة؛ ليكون مكانا تعتقل فيه مئات الرهائن لضمان ولاء بعض شيوخ القبائل. كما أن في مدينة يريم دورًا كاملا في إحدى البنايات، أمضينا فيه إحدى الليالي، كانت الحكومة تحتجز فيه الأولاد كرهائن لضمان حسن سلوك آبائهم. وكان الملك عبدالعزيز أيضا يستخدم الرهائن، ولكن لدي انطباع بأن رهائن الملك عبدالعزيز أكثر حرية من رهائن إمام اليمن(٦).

ووجدت أن الحي اليهودي في صنعاء من أمتع الأحياء، وهو حي منفصل. ويقولون: إنه كان مسموحًا لهم قبل قرنين أن يسكنوا حيثما شاؤوا في صنعاء، ولكن الحاكم في ذلك التاريخ طلب عزلهم في حي منفصل. ومع أنهم أحرار في حركة تنقلهم آنذاك، فإنه لم يسمح لهم بركوب الخيل أو الجمال، وإنما الحمير فقط.

وقد قمت بزيارة للحي اليهودي مرات عدة، وزرت كنسهم وحاخاماتهم. ووجدت أنهم كغيرهم يعيشون حياة فقيرة. ولكنهم يتحكمون في بعض الحرف المهنية؛ مما جعل الدولة تتسامح معهم على الرغم من وجود بعض الاضطراب بينهم وبين المسلمين اليمنيين.

(٦) لم يعرف عن الملك عبدالعزيز استخدامه هذه الوسيلة في أي مصدر. فهذا التباس على المؤلف (المحرر).

ومن الصعوبة بمكان التمييز بين اليهود والعرب لولا خصلتي الشعر المجعدتين المتدليتين على جانبي الرأس حيث يجبرون على إظهارهما كعرمة تميزهم.

هناك اختلاف حول تاريخ وجود اليهود في اليمن، فالإمام والشيوخ المتعلمين يقولون: إن اليهود كانوا في اليمن منذ فجر التاريخ، وهناك قصة تقول: إن الملك يعرب في سنة ٢٠٠٠ ق.م هو الذي فصل اللغة العبرية عن اللغة العربية؛ مما شطر الجنس السامي القديم إلى شعبين ساميين. بينما يصر الحاخامات اليهود على أنهم أتوا إلى اليمن من القدس أثناء فرارهم في سنة ٢٠٠٠ ق.م.

وحيثما كنت في اليمن، سواء في صنعاء أو في الجنوب فغالبًا ما أجد يهوديا حتى في أصغر القرى وأفقرها، وكنت مندهشا أن أجد جواهرجيا يهوديا في إحدى القرى الفقيرة المبنية أكواخها من القش يكتسب عيشه من العمل في هذه المهنة. ووجدت صعوبة في إدراك لماذا يوجد سوق في ذلك الجزء من العالم لمصنوعات هذا الجواهرجي؟

إلا أنني أدركت أن الرفاهية الوحيدة التي ينغمسون فيها هي زخرفة خناجرهم المنحنية وأغمدتها بالجواهر الثمينة.

إنه من الواضح أنه على الرغم من تظاهره بالاهتمام بالجانب التعليمي وإصلاح الطرق، فقد أخبرني أنه قد أمر محافظي المدن أن يقوم كل منهم بإصلاح الطرق في منطقته، ولكن القليل منهم حقّق تقدما في إصلاح الطرق وبناء الجسور. وفى طريقنا إلى عدن، ومن وقت لآخر نمر بطرق قديمة يقال: إنها بنيت منذ آلاف السنين قبل زمن محمد ﷺ. وأثناء توجهنا جنوبًا عبر أقدم طريق للقوافل أدهشتنا كثافة القوافل المسافرة ما بين عدن والقدس. فأحيانا نرى مجموعة صغيرة من المسافرين وأحيانا بعض الجمال أو البغال أو الحمير التي تتحرك بصعوبة حسب وعورة الطرق، ثم تصبح حركتهم

أكثر صعوبة وإرهاقًا في الطرق المرتفعة التي تتكون من صخور متناثرة. ومن الواضح أن الطرق السيئة هي جزء من خطة هدفها خلق صعوبات تمنع الأجانب من دخول اليمن.

وفي آخر لقاء مع الإمام قبل مغادرتي، تحدثنا حول أمور عدة تتعلق بدولته، وحول ما يمكنني القيام به لمساعدته، فأخبرني أن هناك الكثير من المعادن الثمينة في اليمن، ويرغب في أن يقدم أحد المتخصصين في علم المعادن بدراستها.

إن هؤلاء الناس على درجة من الفقر، بحيث أنهم لا يستطيعون تجميل أنفسهم، وغالبا ما تكون محاولاتهم اليائسة في هذا المضمار تافهة وجديرة بالشفقة. وعلى أية حال فإن الجنود مغرمون بوضع أغصان الريحان الخضراء فوق عمائمهم، ويقوم الرجال والنساء في محاولاتهم لإبراز محاسنهم، باللجوء إلى الحناء الأزرق الغامق ووضع بعض النقط على وجوههم وأيديهم إلا أنها محاولات تجميلية فاشلة إلى حد ما. وقد أخبرني محافظ صعدة التركي السابق، وأحد المقربين الآن من الإمام في صنعاء أن هناك رقصتين في صعدة وما جاورها يقوم بها الرجال والنساء معا، إحداهما تشبه رقصة الفالس الغربية، والأخرى تشبه الرقصة الرباعية الغربية الشعبية.

هناك إلى جانب اليهود جنسان متميزان في اليمن. أحدهما يقال أنه ينحدر من يقطان ملك سبأ القديم، وهو جنس من أصفى الأنواع، أجسامهم قوية، وليس لهم لحى، وقاماتهم متوسطة الطول، ووجوههم عريضة، وبشرتهم نحاسية إلى حد ما، ويرتدون القليل؛ مما يستر أجسامهم بما فيهم شيوخهم الذين يضطرون أحيانا إلى ارتداء المزيد من الملابس أثناء وجودهم في الأراضي البريطانية. أما الجنس الآخر فأكثر طولا، وأكثر وسامة، وغالبا ما يكون لهم لحى مكتملة، ويرتدون الملابس. وحيث إن المناخ واحد بالنسبة لهما؛ مما يؤكد صحة مقولة (هربرت سبنسر) التي تقول: إن التجمل يسبق الملابس في تاريخ

التطور البشري. ويقال: إن هذا الجنس الثاني ينحدر من إسماعيل، وقد أتوا من الشمال، ويجري في عروقهم الدم اليهودي.

يستطيع اليمني بما يتوافر لديه من مصادر بشرية أن يضاعف إنتاجه عن طريق العمل الشاق من خلال عمله من طلوع الشمس إلى غروبها، بينما يستطيع كل أمريكي بما يتوافر لديه من مصادر ميكانيكية أن يرفع إنتاجه بما يزيد عن مئتين وخمسين مرة مما ينتجه الرجل اليمني.

إنه من الصعب على شخص اعتاد على الحياة الغربية السهلة أن يفهم كيف يمكن لشعب يعيش في بلد كاليمن وأن يتغلب على مشاق الحياة، إلا أنهم بالفعل يتغلبون عليها؛ فقد عاشوا قرونا عدة على قدر ضئيل لا يتجاوز ضروريات الحياة، ولا يعرفون نمطا آخر للحياة. ومع ذلك فإنهم يغارون على بلدهم وحكومتهم، ويعملون على حمايتها على الرغم من قلة ما توفره لهم. بينما تواجه أية حكومة غربية على الرغم مما توفره من رخاء لشعبها الانتقادات المستمرة والثورة أحيانا إذا أمكن ذلك.

يشتهر سكان الجبال في العالم أجمع بأنهم قوم لا يفرطون في حريتهم ويضعونها قبل كل شيء. ومع أن الحياة شاقة وصعبة في اليمن فقد قابلت في الولايات المتحدة يمنيين يعيشان هناك منذ سنوات عدة، أحدهما يهودي والآخر مسلم لم يتمكنا من التغلب على الحنين إلى الحياة في الجبال التي عاشوا فيها سابقا، فقررا العودة أخيرًا لقضاء بقية أيام حياتهما هناك.

ليس في اليمن أدوية على الإطلاق، وحتى الأعشاب الطبية التي قد تحل محل الأدوية في البلاد النامية غير معروفة في اليمن. فإذا كنت مريضا فليس أمامك سوى المعاناة. وإذا أصابك مرض خطير فليس أمامك سوى الموت. ولكن هناك نبات عشبي واحد يستعمل على نطاق واسع في اليمن هو نبات القات. وقد جلب إلى اليمن من

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٢٤هـ، السنة التاسعة والعشرون
الدارة

الحبشة في الوقت نفسه الذي جلبت فيه القهوة. وهناك بلدة بالقرب من مخا تعرف باسم بلدة الشجرتين اللتين زرعتا هناك لأول مرة. الشجرة الأولى: شجرة القات. والأخرى: شجرة القهوة. ولليمنيين عادة متأصلة شبيهة بعادة تناول الشاي بعد الظهر عند البريطانيين، فعند الساعة الرابعة عصرا يجلس الجميع؛ لمضغ أكبر كمية من القات التي يمكن أن يقدمها المضيف. والقات عقار مخدر تروق الأحاديث أثناء تناوله. إلا أنه على أية حال مدمر لخلايا الدماغ؛ ومع ذلك فكل إنسان يمني حتى الجندي العادي صاحب الدخل الضئيل يحاول توفير القليل لشراء القات. إنه شبيه بعادة تناول الكوكائين في الغرب.

وتجد النساء مشقة في أثناء الولادة، ولعل المساعدة الوحيدة التي تلقاها المرأة المسكينة هو أن ترقص إحدى صديقاتها برفق فوق بطنها. ومع أن لديهم أطفالا كثيرين إلا أن الكثير منهم يكون الموت مصيره. فقد أخبرني محافظ إحدى المدن أنه فقد شخصيا اثنين وعشرين مولودا. وهو رقم مرتفع حتى في أمريكا. وعلى أية حال ما زال لديه ثمانية أولاد وهو في صحة جيدة.

ويستعمل، عادة في نجد وأحيانا في اليمن، قضيب حديدي حار جدا لعلاج بعض الأمراض البشرية والحيوانية. وقد تذكرت ملاحظة جراح أمريكي مشهور بعد أن أتيحت له الفرصة لرؤية بعض ضحايا الحرب. فقد قال لي: "بصفتي جراحا، ظننت أنني قد عرفت شيئا عن مدى قدرة الإنسان على المعاناة وتحمل التعذيب، إلا أن تجربتي الحربية أظهرت لي أن قدرات الإنسان على التحمل تفوق كل ما عرفته من قبل".

وأستطيع أن أقول: إنني أشاركه الشعور بعد أن رأيت حالات الشقاء الإنساني التي يمر بها الإنسان في اليمن منذ ولادته حتى وفاته.

بدأنا رحلتنا في أوائل شهر فبراير من عدن إلى القدس عبر طريق القوافل الأوسط وهو أحد الطرق الثلاثة المتجهة شمالا. وحيث إنها طرق قديمة فقد جهزت للمسافرين نهارا. وهناك محطات قليلة تظهر من وقت لآخر تتكون من بئر ومسجد ونزل متواضع. وكنت مندهشا لكثافة حركة القوافل في هذا الطريق؛ فقد مررنا بعدد من القوافل القادمة من الجنوب، واليهود الذين مررنا بهم لا يسمح لهم بركوب الخيول أو الجمال شأنهم في ذلك شأن اليهود في بخارى، وإنما يسمح لهم بركوب الحمير. وكنا نمر من وقت لآخر ونحن في طريقنا إلى ذمار ببعض المباني الكبيرة. وأخبرونا أنها تعود إلى العصر الحميري، ومررنا من وقت لآخر بسهول منبسطة وفلاحين يمتحون المياه من آبار دونما استخدام للحيوانات؛ إذ إن المياه لا يزيد عمقها عن خمسة أو عشرة أقدام من السطح.

رأيت حالات الشقاء الإنساني التي يمر بها الإنسان في اليمن منذ ولادته حتى وفاته

وكانت ذمار أكبر بلدة مهمة مررنا بها بعد صنعاء، وفيها بعض المساجد الجميلة، وقد أطلعنا السكان على صخرة في إحدى المآذن عليها نقوش يقولون: إنها حميرية. كما رأينا صخورا أخرى على شاكلتها. ورأيت في أحد المعابد اليهودية رقّا من الكتاب المقدس، أخبرني الحاخام أن اليهود قد أحضروه معهم منذ ٢٠٠٠ سنة. وكان الحاخام يحيى السيد[٧] أكثر العلماء الذين قابلتهم ثقافة في اليمن. وأخبرني أن اليهود قدموا إلى اليمن قبل هدم الهيكل، واستقروا في البداية في برش الواقعة شرق صنعاء. وأن صنعاء سميت باسم سام ابن نوح، وأن صعدة وذمار قد سميتا باسمي ابني نوح. ويصر الحاخام على أنه لم يكن في اليمن يهودي قبل هروبهم من القدس. وأخبرني أنهم على اتصال باليهود في فلسطين ومصر. ويعرفون شيئا قليلا

(٧) هو يحيى سعيد جريدي. انظر رحلة إلى العربية السعيدة، ص ٢٩٠، (المحرر).

عن الحركة الصهيونية. وأخبرني أن اليهود موجودون أيضا في بيحان الواقعة شرق ذمار على بعد ثمانية أيام من رحلة القافلة، إلا أنه لا يعرف شيئا عن أمريكا. وقد عزل الإمام اليهود عن المسلمين مع أنه لا يتسامح مع أية مضايقات ضد اليهود.

لقد حرصت كلما ذهبت إلى أي مكان في اليمن على مقابلة أكثر رجالها معرفة بتاريخ المكان. ولكنهم نادرون جدا؛ لأن البقية منهم لا يتعدى اهتمامهم الفترة الإسلامية.

ومع أن يريم بلدة لا يتجاوز عدد سكانها أربعة آلاف نسمة، ولم يمض على وجودها سوى ستمئة سنة؛ إلا أنها تقع في مركز نشاط الدولة الحميرية القديمة، وبالقرب منها أطلال عاصمة المريامة القديمة.

أما ذكريات سكان يريم عن قصة قبر رفيق نيبور[٨] فذكريات شاحبة. وحيث إن المسلمين السنيين يعتقدون بفناء القبور فإن قبر رفيق نيبور ليس له وجود. وأقمنا في يريم في غرفة كبيرة. وفي الدور الأرضي مئات الأولاد الذين يحتفظ بهم المسؤولون الحكوميون كرهائن لأسباب مختلفة. والرحلة من يريم إلى المخادر تمر عبر واديين عميقين لهما منظر رائع يمكن مشاهدته من أعلى نقطة مطلة على الواديين، ويذكرنا هذا المنظر بوادي جراند كانيون في كولورادو. وكان الطريق سيئا جدا في هذه المنطقة؛ مع أن أحد الملوك الأقدمين قد رصف جزءا من هذا الطريق بالصخور، إلا أنه الآن سيئ بسبب الإهمال والدمار الذي أصابه على مر القرون؛ مما يجعل السفر عبره صعبا، وعدمه أفضل من وجوده. ومررنا في طريقنا من المخادر إلى إب بأشجار كبيرة وجميلة ورأينا نباتات الكاكتوس والآبار التي تشرب منها القوافل. وبلدة إب تقع على قمة هضبة مرتفعة شأنها في ذلك شأن المدن اليمنية الأخرى. وشاهدنا فيها أغرب طراز معماري في اليمن.

(٨) رفيق نيبور هو بيتر فوركسال (المحرر).

وتقع إب خارج الأراضي الزيدية؛ إذ إن محافظها سني يحظى باحترام الإمام لدرجة أنه لم يطلب منه أن يرسل رهينة. وهو رجل متميز صاحب أملاك كثيرة. وأحياء مدينته ممتازة ومنطقته تعيش في رخاء ملحوظ. ويعود رخاء إب إلى الزراعة. وفيها أيضا يهود يقومون بأعمال النسيج والحرف اليدوية الأخرى. وأخبرنا محافظ إب أن طريق القوافل القديم الذي يربط حضرموت باليمن يمر بمدينة البيضاء وردع وذمار وصنعاء. أما الطريق القديم بين لحج وصنعاء فيمر بمدينة يافع والضالع وقعطبة والسدة ويريم وذمار. ويقع هذا الطريق شرق إب، ويمر بسهول يسهل على الجمال السير فيها. وهو الطريق الذي يسلكه الحجاج. وفي إب ما يقارب مئة يهودي، ولكنهم غير سعداء ويتمنون الرحيل إلى القدس.

وفي الجنوب ما بين السياني وماوية أراضي محافظ مدينة قفر. ويبدو أنه رجل نشيط فقد بنى أفضل طريق في اليمن، وبعض الجسور الممتازة على الرغم من صغرها في قرية نخلان. وعلى حدود محمية عدن مسجد قديم جميل يشبه طرازه المعماري مسجد عرفات الذي أخبرني سكرتيري(٩) أنه قد شاهده هناك. وطرازه المعماري مختلف تماما عن أي مسجد في اليمن. ويقال: إنه قد بني في عهد النبي محمد ﷺ. وهو مسجد كبير وليس عليه نقوش، ولونه أبيض، وتقام الصلاة في فناء ملحق به.

ومن بلدة مويه في الجنوب دخلنا أراضي سلاطين المحميات البريطانية، ولكنهم لم يسمحوا بدخول الضابط اليمني الصغير الذي رافقنا في رحلتنا. وأخبرونا أنهم سوف يتولون مرافقة قافلتنا الصغيرة إلى أن نصل إلى عدن. ودهشت عندما وجدت يهوديا في إحدى القرى المبنية أكواخها من القش، وكانت قرية فقيرة جدا. وأخبرني أن يهوديين آخرين يعيشان في هذه القرية بالإضافة إليه.

(٩) هو نزيه مؤيد العظم الذي رافقه في رحلته، (المحرر).

ازدادت دهشتي حينما علمت أنه مرتاح في حياته، ويعمل جوهرجيا، ويقوم بزخرفة مقابض الخناجر بقطع صغيرة من الذهب والفضة التي يضحي أصحابها بالكثير من أجل تزيينها.

ولفت انتباهي في منزل أحد السلاطين، الذي قضينا فيه ليلتنا في ضيافة أحد الأمراء الشباب، وسامة مساعده الشاب، إلى درجة أنني لم أملك نفسي من السؤال عنه، وكانت إجابة الأمير سريعة وقصيرة: "إنه عبدي".

هناك شبه بين الملك عبدالعزيز والإمام يحيى في العمر، وفي أسلوب حكمهما. فكلاهما حريص على رعاية شعبه، وكلاهما يعتنق المذهب السني[١٠]. وحيث إن مملكتيهما صغيرة فإنهما يستطيعان ويرغبان في الإشراف التام على كل شيء ودون مساعدة من أحد. ومعظم مستشاري الإمام من السوريين شأنه في ذلك شأن الملك عبدالعزيز. وكلاهما حريص في اختيار قضاته، ويشرف بنفسه على أعمالهم القضائية، وكلاهما يطبق الشريعة الإسلامية. وحيث إنه لا وجود للمدن الكبيرة في أي من البلدين التي يتمكن فيها المجرمون من الاختباء؛ فإن القبض عليهم يتم بسرعة، وتتم معاقبتهم بصرامة وحزم؛ مما يحد من انتشار الجريمة، حتى بين هذه الشعوب المتمردة والنتيجة أن الحياة والممتلكات في أمان أكثر مما عليه في أي مكان آخر من العالم. ويستخدم الملكان العطر اقتداء بالنبي ﷺ، ولا يتناولان الكحول، ووجباتهما الغذائية كبيرة ولكنها تقليدية. ويقال: إن الملك عبدالعزيز يتناول وجبتين يوميا: وجبة الفطور، وتتكون من الحليب والتمر، ووجبة الغداء وتتكون من الأرز واللحم، ونادرا ما

(١٠) كلام المحاضر هنا فيه جانب كبير من الصحة؛ إذ يذكر الشيخ إسماعيل الأكوع أن الإمام يحيى على الرغم من كونه إمامًا للزيدية، فإنه يميل كثيرًا للمذهب السني بسبب تأثير شيخه الجنداري عليه.

انظر: هجر اليمن ومعاقله: ١٦٩٦/٣-١٦٩٧ (المحرر).

يتناول صنفا آخر. وبالطبع فإن الأرز واللحم وجبة صحراوية قديمة يجيد طبخها الجميع. وإذا كانت المناسبة صغير فيكتفي بطبخ خروف صغير وكمية كبيرة من الأرز، أما إذا كانت المناسبة كبيرة فتطبخ شاة كبيرة محشوة بالأرز. أما وجبات الإمام فأكثر تنوعا، ولكنها تظل كبيرة، ويحتفظ كلاهما برهائن؛ لضمان ولاء المسؤولين الذين يعملون تحت إمرته(١١)، والمشكلات التي يواجهها الإمام أقل خطورة مما يواجهه الملك عبدالعزيز. فالشعب اليمني متجانس نسبيا، والفروق الدينية بين السنة والزيدية لا تشكل خطورة سياسية. وعلى أية حال فقد كان اليمن منذ القدم محط أطماع الآخرين بسبب موقعه الاستراتيجي؛ مما دفع الإمام والشعب اليمني إلى عدم الثقة بالأجانب، والشعور بأن عليهم التضحية بقسط كبير من دخلهم المتواضع للاهتمام بجيشهم. وهذا بالطبع يجعل الدولة فقيرة جدا. أما المشاكل التي تواجه الملك عبدالعزيز فأكثر صعوبة وتعقيدا، وتتطلب فنا إدرايا عاليا. وحيث إن الوهابيين هم رأس الحربة، فإنه لا يستطيع الاستغناء عن الإخوان المستعدين للتضحية طالما أنه مخلص لمبادئهم. ومع ذلك فإنهم لا يخفون كراهيتهم لكل ما يجري في الحجاز من الممارسات الدينية التي يجلبها الحجاج معهم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. ويبدو أنه من المستحيل إرضاء الطرفين وعلى أية حال فإن أمام الملك عبدالعزيز مهمة شاقة لإدارة مملكته.

تعليق:

جلبرت كليتون: سيدي اللينبي، سيدي المحاضر أيها السيدات والسادة. أشعر أنني مجبر على التعبير عن رأيي في هذا المقام. فقد رفض اثنان أن يعبرا عن وجهتي نظريهما. ومن المعروف أنني حظيت بزيارة هذا المواضع التي تحدث عنها السيد كرين. ولن أضيف المزيد

(١١) سبق التعليق على ذلك، وبيان أن هذا ليس من منهج الملك عبدالعزيز (المحرر).

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٢٤هـ، السنة التاسعة والعشرون

إلى أوصافه لهذه الزيارة التي تجعلني أستحضر بوضوح ذكرياتي الشخصية المتعلقة بزياراتي لتلك البلاد. ولدي فقط ملاحظة أو ملاحظتان. فقد ذكر السيد كرين أثناء حديثه عن رحلته أنه قد زار جدة، ومن المحتمل أنه أقنعكم بأن جدة مكان متوحش، وأن الإدارة الوهابية أكثر وحشية مما لاحظته شخصيا. بالطبع إنهم يكرهون الأضرحة وما شابهها، ولكنني أعتقد أن الملك عبدالعزيز قد تحكم في أتباعه المتشددين، والذين يشكلون رأس الحربة في قواته العسكرية. فقد أمضيت في شهر مايو الماضي أسبوعين في جدة في موسم الحج، وأعترف أن الترتيبات التي اتخذت لحماية الحجاج خلال رحلتهم إلى مكة والعودة منها وخلال إقامتهم هناك كانت أكثر تقدما من كل ما شاهدته في مواسم الحج السابقة، وهذه علامة طيبة. صحيح أن الملك عبدالعزيز يواجه مهمة صعبة، ولكنني أعرفه جيدا، فقد رافقته لبعض الوقت في مناسبتين ماضيتين، وتحدثت معه على انفراد. وإذا كان هناك شخص يستطيع توحيد الوهابيين في وسط نجد مع العرب الأكثر تحضرا بسبب اتصالهم بالحضارة الغربية، فإنني متأكد أن ذلك الشخص هو الملك عبدالعزيز. وإذا عاش طويلا فإنني أعتقد أنه سيحقق النجاح في هذا المضمار.

أما في ما يتعلق باليمن فقد أثار اهتمامي نقطة أو نقطتان من موضوع المحاضرة: الأولى أنه بعد صعود الطرق الجبلية الشاهقة، والوصول إلى الهضبة العالية التي تقع عليها صنعاء والمدن الرئيسية اليمنية الأخرى؛ فإن الإنسان يشعر بعزلة هذا المكان على الرغم من أنه على بعد ثمانين أو تسعين ميلا فقط من أكبر طريق يربط الشرق بالغرب، وترتاده السفن العظيمة محملة بمختلف المخترعات الحديثة، أي أنه قريب جدا من أي مكان في العالم. إنها حقا حضارة متعالية.

وهناك نقطة أخرى لها صلة بمن أراد دراسة ذلك البلد، فقد أمضيت شهرا في صنعاء دون أن أعمل شيئا سوى التفكير، وشد

انتباهي استقرار المكان، فهو صغير وحضارته خاصة به، وربما لا يمكننا أن نسميها حضارة بمقاييسنا الغربية، وفي الوقت ذاته فلهذا المكان حضارته التي تعود إلى مئات السنين بل مئات آلاف السنين، فمملكة سبأ كانت من ضمن الممالك اليمنية المتأخرة. وأعتقد أن الاستقرار يعود إلى صعوبة الوصول إلى الأراضي اليمنية؛ مما منحها حصانة طبيعية ضد أي خطر خارجي. إضافة إلى حقيقة أن الشعب اليمني ليس شعبا بدويا كمعظم سكان وسط الجزيرة العربية، وإنما هو شعب زراعي يعيش في القرى ويفلح أرضه، وله ولع طبيعي بالأسلحة. وهو شعب مدرب على حمل السلاح، ومستعد جدا للدفاع عن بيته وبلده. ولهذا السبب وعلى الرغم من صعوبة الوصول إليه، فإنه يجب التذكر أنه بلد مجاور لمحمية عدن؛ ولذا فإنه جدير بأن يقوم البريطانيون الذين يعملون هناك بدراسته. وإنني متأكد لو منح البعض فرصة للذهاب إليه، وكان لديهم نفس الروح المتعاطفة التي أظهرها السيد كرين؛ فإن شيئا جيدا سيتحقق للتغلب على عدم الثقة بالأجانب الذين يقيمون الآن في اليمن. وأعتقد أن الإمام نفسه على الرغم من غيرته على استقلال بلده كما أشار السيد كرين شأنه في ذلك شأن من سبقه منذ مئات السنين؛ سوف يتجاوب مع كل مساعدة أو مشورة متعاطفة.

رئيس الجلسة: أيها السيدات والسادة، أطلب منكم التكرم بمشاركتي لإزجاء الشكر للسيد المحاضر الذي أسمعنا خطابًا مفيدًا وممتعا. وأعتقد أن السيد جلبرت كليتون كان مصيبًا حينما قال: إن شيئًا جيدًا سيتحقق لهذه البلدان من خلال الرجال المتعاطفين من أمثال محاضرنا لهذه الليلة. فشكرًا جزيلاً للسيد المحاضر.